

عبد العزيز هلال المدفع

توقفت الشاحنة بمحاذاة الرصيف ، امام البوابة تماما . وهبط رجالها الثلاثة والقوا نظرة فيما حولهم . قال السائق : « هيا ، لنسرع ، قبل ان يتجمع الاطفال » . وصعد الى صندوق السيارة ، ودفع المدفع الى حافته فتلقاه الرجلان الآخران . وبعد دقيقة كان المدفع مستقرا في مدخل الحديقة ، وفوقه صندوق خشبي مستطيل . فرك السائق كفا بكف ، ثم مسحها بخلفية بنطلونه ، قائلا لرفيقه : « حسنا ، اتمنى لكما اقامة طيبة » .

فابتسم احدهما ؛ لم يقلوا شيئا . وابتعد السائق : « والآن ، وداعا » . كان بعض الاطفال قد تجمعوا على البوابة ، يرمقون سبطانة المدفع وعجلتيه بعيون مبهورة . وتساءل احدهم : « هل هذا مدفع ؟ » فسارع آخر الى القول : « نعم ، انه مدفع » . وشرع الرجلان يجران المدفع في الممر الرمي ببطء ، فزحف الاطفال خلفها . اضاف طفل ثالث معلوماته : « انه مدفع العيد » . فصيح الآخر بتبجح :

« انه مدفع رمضان . غدا سنصوم . وهذا الذي سيعطينا الاشارة . بم عندما يجب ان نصوم ، و بم عندما يجوز لنا الافطار » . ردد الاطفال باعجاب : « بم بم بم » .

واذ انتهى الرجلان بالمدفع الى نقطة ملائمة من الحديقة ، توقفا وجففا العرق حول رقبتهما ، وهما يتأملان نظام الحديقة بنظرات باهتة ، لم يظهر فيها اي تعاطف . كان عليهما ان يقيما ثلاثة وثلاثين يوما ، هنا ، مع هذا الشيء ، ليخدماه ويسهرا على سلامته . وانزلا الصندوق الخشبي من فوق المدفع ، واخرجا من جوفه بعض الادوات ، وجعلا يركزان المدفع ويثبتان عجلتيه الى الارض ، بينما احاط بهما الاطفال وهم يراقبون المشهد ويضجون بالتعليقات ويختلفون في ذلك فيتشاجنون .

بعد ان فرغ خادما المدفع من عملهما ، جلسا يستريحان على العشب . كان احدهما متزوجا والدا يفكر باسرتة . ليس معقولا ان تقيم معه هنا . ولكنه يود ذلك . اما

الآخر فقد احس بالنعاس . انه مكان رطب ولا يصلح الا للنوم . قال :

« اذهب انت الى البيت لتتدبر الامر مع عيالك ، وتحضر لوازمك للاقامة هنا » .

« أتبقى انت ؟ »

فاستلقى على ظهره متمطيا : « وماذا اذا ؟ »

وبعد ان ذهب الرجل المتزوج ، بدقيقة او نحوها ، غاص رفيقه في نوم كثيف .

قال طفل : « لقد نام » .

قال آخر : « اتنى لو اكون مكانه » .

« أتحب ان تكون حقا ؟ »

« نعم ، احب . احب المدفع » .

« ياه ! انا اخاف لمسه . انه شيء مخيف » .

« انت جبان » .

« جبان ؟ انا ؟ »

« لانك تخاف من المدفع » .

« لا . ولكن امي تقول انه يقتل ، يميت » .

« انت ابن امك » .

« كل واحد هو ابن امه » .

« انا لست ابن امي » .

« كذاب . كل واحد يجب ان تكون له ام » .

« انت ابله ولا تفهم شيئا » .

« انا ؟ »

« يقول ابي ان الجبناء هم ابناء امهاتهم ، والشجعان هم ابناء آبائهم » .

« وما معنى هذا ؟ »

« قلت لك . انت ابله ولا تفهم شيئا » .

وتقدم نحو المدفع في خطوات حذرة كيلا يوقظ الرجل . صاح احد الاطفال :

« هيه ! انظروا ، سيضربه الرجل » .

فقفز الى الوراء مبتعدا .

كانت الشمس قد تدنت من الافق ، وامتدت ظلال الاشجار بعيدا . وامتلات الحديقة بالنساء والاطفال . كان القادمون يتجمعون حول المدفع لحظات ثم يتفرقون ، ليجلس بعضهم على المقاعد ويتلهى الآخرون بالاراجيح . كانوا خليطا متعدد الالوان من النساء

والاطفال . واغلب النساء يتشحن بسواد الملابس التقليدية القديمة ، بحجبا اجسامهن السمينة الثقيلة . كن جميعا يقضمن الفستق والقضامة ويفصصن البزر في شبيهة ، وقد اثار المدفع في اذهانهن خواطر حمة وذكريات رمضان السالف ، وتعليقات على غلاء المعيشة الذي يعانينه في كل رمضان . ثم قالت واحدة من ثلاث يجلسن على مقعد قريب من البوابة : « لم يبقَ لرمضان سحره القديم » .

وتحسرت . كانت في الاربعين ، كتلة من الشحم واللحم تزن قنطارا . وحذت شريكها في المقعد حذوها ، في آن واحد ، وكانت اصغر منها سنا واقل وزنا ، وكان وجهها مطلقين بجمرة فاقعة اللون ، وعيونها مكحلة بكحل فاحم . وقالت احدهما : « كانت الحياة نفسها اجمل » .

« هذه الحال اليوم بسبب الكفر يا اخي » .

« صحيح . لقد تغير الناس ، وصار الاتحاد موضة اليوم » .

« انظري الى هؤلاء القذرات ، انهن يرقدين خرقا لا ثيابا . كل شيء بائن . كل شيء » .

وعندما رجع خادم المدفع الآخر من بيته ، وضع امتعته جانبا وايقظ رفيقه : « هيا دعنا نهيء المدفع » .

وانصرف الى اعداد البارود والحشوة . وغطى زميله ، وتشاءب ، ثم نهض الى صنبور الماء فرشق وجهه وبلل عنقه وشرب ، فاحس بانتعاش . ووقف يحملق فيما حوله بدهشة : هناك كثير من النساء . وعندئذ احس بشيء يشبه الذعر ، فاقبل على صاحبه :

« ألاحظ اننا الرجلان الوحيدان هاهنا ؟ »

« طبعا . انها حديقة خاصة بالنساء والاطفال » .

« حقا ؟ لماذا ؟ »

« لقد رأيت البلدية انه من الصواب تخصيص الحديقة على هذا النحو ، لتتيح للنساء المحافظات متعة الجلوس في الحدائق » .

« انها فكرة حسنة . أليست كذلك ؟ »

« نعم . ربما . ولكنني افضل لزوجتي ان ترثاد اية حديقة الالهة » .

« لماذا ؟ »

« قد تدرك السبب خلال اقامتك يوما او اثنين » .

كان بعض الفتيان من عابري الطريق يقفون على الارصفة ، حول الحديقة ، متطلعين الى الداخل ، من خلال شبك السور المعدني ، يتحدثون وهم يتشوفون بعيون نهمة الى

الداخل . ومرفسيسان فتوقفا ينظران الى المدفع وخادميه المنهمكين في عملية الحشو . لم يتكلم . كانا هما ايضا يعرفان ان رمضان يمكن ان يبدأ غدا . ثم تابعا سيرهما الوئيد في وقار جميل . وفي المكان نفسه تلكأ فتى وسيم ، انيق ، يرتدي بنطلونا ضيقا من الصوف الاسود وقميصا من الحرير الازرق الفاتح ، ينفث عن صدر تتدلى عليه قطعة فضية معلقة بسلسلة حول رقبته . كان غلاما نظيفا مثل اميرة صغيرة . توقف هناك وراح يرقب ما يجري في الداخل . ولكن المدفع لم يثر اهتمامه بقدر ما اثاره مشهد صبيتين تقتربان من السور حيث يقف . كانتا في بداية البلوغ وكانت احدهما سمينة ولا تكف عن الضحك . سألهما : « أذاك مدفع ؟ »

فضحكت السمينة ، واشاحتا بوجهيهما جانبا في دلع ، وقد تلاصق رأساهما . واحس الفتى برعدة في قلبه ، انتشرت في كيانه كله في الحال ، وجعلت ساقيه رخوتين . وبعد ان تخلص من ذلك استطاع ان يقول : « انه مدفع جيد » . وتكرر الشيء نفسه في الطرفين . وقال ايضا : « التجربة ستثبت انه رائع . ما رأيكما ؟ » وفي هذه المرة ضحكنا معا ، وتدافعتا فتعثرت السمينة وسقطت على ظهرها ، فرأى الفتى سروالها الابيض الصغير ، من خارج السور الحديدي ، قبل ان تنفث الفتاة على جنبها وتمكن من النهوض ، منطلقة خلف صاحببتها التي كانت قد ابتعدت الى الداخل ، وظلت عينا الفتى تلاحقها جاحظتين .

امسى المدفع جاهزا . وبعد ذلك جلس الرجلان فوق مرجة قريبة منه ، متكئين على شجرة واحدة ، يدخنان في صمت ، بانتظار اشارة اثبات شهر الصيام . لقد غابت الشمس ، وثمة مراقبون ، الآن ، في كل مكان من العالم يرصدون الهلال . كان الرجل المتزوج ينظر الى الاشياء ، وحتى النساء ، امامه في حياد ؛ كان بعيدا عن هذا المكان ، كان في بيته ، حيث زوجته الغبية التي لا تستطيع تدبير الامور منفردة ، واولاده الاربعة الذين يحبون الارصفة والغبار اكثر من حبهم البيت . انه يحتاج اليهم ، انهم يحتاجون اليه في رمضان ، في كل امسية من رمضان ، عندما يدوي المدفع ، اكثر مما يحتاجهم ويحتاجونه في اي شهر آخر . بيد ان الرجل العازب كان هنا ، حاضرا تماما ، بكل مشاعره وغرائزه . كان يحلم بفراش يتسع لاربع يختارهن من هذا الحشد الذي يستعرضه . سمراء وشقراء وسمينة ونحيفة . وهو يفضل المحجبات : انهن اقل اتعابا وانظف جلدا . واخيرا قال العازب :

« الاقامة هنا جميلة ، ولكنها مرهقة » .

ثم تساءل : « هل تظن انهم سيرون الهلال ؟ اعني اليوم ؟ »
« علمي هو علمك » .

وبعد هنيهة ، قال : « انهم دائما يرونه من حماة » .
« ليس دائما . في السنة الماضية جاءتنا الاشارة من مكة » .

وتشجع ، في هذه الغفلة ، ذلك الطفل الذي يحب المدفع ، على الاقتراب منه . كان يقف لصقه الآن ، وبعد لأي . كان لا يريد الالمسه . وبعد ان لمسه لم يتراجع . بل ظل واقفا ينظر اليه في نشوة . لقد لمسه ! حسنا ، لمسه ولم يحدث شيء . كم يود لو يطلقه ! سوف يعجب الناس به . سوف يشيرون اليه اينما ذهب ، ويقولون : « هذا هو ! لقد اطلق المدفع » .

وكانت الفتيلة بارزة امام عينيه ، بيضاء صغيرة . وخلف المدفع ، على الصندوق الحشوي رأى علبة كبريت . لم يبق مبرر لاي تردد بعد .

كان وجه المراهقة السمينة محمرا من العافية والضحك . وكانت الآن ترمق الفتى المفتون بعينين نديتين بالدموع ولا تكفان عن الضحك هما ايضا . وبعد ان ابتعدت ورفيقتها عن السور مرة اخرى ، اندفع الفتى راكضا يريد الوصول الى مكان اقرب الى مكانها ، ليفاجئها ، فاصطدم بفتى آخر من نمطه تماما ، فدفعه عنه صائحا : « هيه ، كن واعيا أنت اعمى ! »

« اخرس والا حطمت فمك » .

واشتبكما يتعاركان بضراوة ، وكان كل منهما يلکم الآخر على وجهه فيدميه . ولكن انفجارا هائلا دوى فجأة فنسي كل منهما الآخر ، وتعالى صياح الاطفال ، داخل الحديقة : « هيه . اثبتوه . اثبتوه » .

وبعد ان افاق الرجلان من ذهولهما هبا الى المدفع ، ولكن الطفل كان قد هرب قبل ان يتحركا ، وتابع ركضه الى البيت حتى بعد ان خرج من الحديقة . وكان صياح الاطفال ما ينفك يضج في فرحة عارمة : « اثبتوه . اثبتوه » .

وهتفت امرأة وحيدة على مقعد : « يا الهي ، اذا سنصوم غدا ؟ ما كنت اتوقع هذا » . وضحكت الفتاة السمينة وهي تدفع رفيقتها التي شرعت هي الاخرى في الضحك : « لن نستطيع الحضور هنا غدا . سنكون دائما في البيت بانتظار الافطار » .

وكان الرجل المتزوج يضرب كفا بكف وهو يقول :

« يا للولد اللعين . خرب بيتنا . ما عسانا نقول لهم ؟ »

ونظر الفتى الى خصمه في غيظ ، ثم لوى رأسه ، وبصق دمه على الرصيف ، وهو يتعجب مغمما : « اللعنة ! لماذا تقاقلنا ؟ »